العنوان الأدبي في الفكر العربي المعاصر

أ/ لعلـــى سعـــــادة
كلية الآداب واللغات
جامعة بسكرة

الملخّص:

لم يحظ العنوان الأدبي بالاهتمام الكافي من قبل القدماء من حيث كونه السمة والعلامة المميزة لكل عمل إبداعي، غير أن الدارسين المعاصرين تفطنوا إلى أهمية العنوان في الكشف عن أسرار العمل الإبداعي والإفصاح عن مكنوناته وخباياه، باعتباره العتبة الرئيسة للدخول إلى عوالم النص، وهذا ما يستلزم إعطاءه الأهمية القصوى سواء من حيث التشكيل والبناء أو من حيث محاورته واستنطاقه والتوسل إليه ليكشف عن عوالم النص الخفية.

Résumé:

Le titre littéraire n'a pas reçu l'attention suffisante par les anciens en termes d'être l'attribut et la marque pour tous les travaux créatifs, mais les contemporains ont pris conscience de l'importance de titre dans la divulgation des secrets et l'identités de la création, car le titre est un seuil d'entrée dans le monde du texte, et qui est nécessaire de lui donner une importance primordiale à la fois en termes de composition et de la construction, soit en termes d'une argumentation et d'extraire de l'information et pour le prier de révéler les mondes cachés du texte.

مقدمـــــــة:

دشّنت المنهجيات الحديثة عهدا جديدا للدرس الأدبي والنقدي، وساهمت في إيجاد كثير من الرؤى والآليات القادرة على سبر أغوار النصوص الإبداعية، والتوغّل في متاهات الظواهر الأدبية قصد استكناه أعماقها وتفحّص مكوناتها على نحو يمكّن القراءة من القبض على جوهر النص، وإظهار خصائصه التعبيرية والأسلوبية.

وقد واكب الدارسون والنقاد العرب المعاصرون المنهجيات الحديثة فأدى ذلك إلى إيجاد صيغ كثيرة، ومنطلقات ورؤى متعددة تنطلق منها القراءة إلـــى فضاءات النص، بتوافر قدر كبير من الاشتغال الحر في فعاليتي الانتقاء والفحص ومن ثم القراءة.

العنوان والموجهات الخارج- نصية:

لعلّ من أبرز ما أوجدته جهود الدارسين في هذا المجال، هو الاهتمام بالموجهات الخارج- نصية، ودورها الفاعل في دعـــم الفعاليات الداخـــل- نصية، وتطويـــر مستويات اشتغالها، وقدرتها على المساهمة في كشف ثراء النصوص وخصوبة الظواهر بنحو جديد[1]...

يأتي العنوان في صدارة هذه الموجّهات التي تثير فضول القراءة بغية السعي لحل إشكاليات النص. وهكذا بدأت إشكالية العنوان تشغل حيزاً استثنائياً في الدرس النقدي الحديث ؛ ذلك أن العنوان يتوفر على إمكانات مدهشة في فهم النص وتأويله، " فهو ممتلك لبنية ولدلالة لا تنفصل عن خصوصية العمل الأدبي، والعنوان يضمن العمل الأدبي بأكمله. "[2]

يمثل العنوان ــ في الإبداع المعاصر عامة وفي الإبداع العربي خاصة ــ إشارة أولى ضمن عملية القراءة، فالعنوان بمثابة الباب/ المدخل إلى النص، والدخول إلى البيوت يكون من أبوابها ــ كما يقال ــ وهذا الإقرار ليس مجرد تعبير مجازي، إنه أولا امتداد ضمني لصورة البحث عن النصف الآخر، وهو ثانيا استفادة من مفهوم أسعفتنا به المناهج النقدية وهو مفهوم العتبة، فلكل نص عتبة أو بالأحرى عتبات، وعتبته الأولى هي عنوانه.

هكذا تصبح صورة الكتاب مثل مسكن. ولنتذكر هنا قولة هايدجر: (اللغة مسكن الكائن). إن الكتاب أيضا مسكن القارئ، والعرب اختاروا أن يستحضروا مصطلح البيت ضمن القصيدة التي تعد بهذا المعنى مسكنا، فيه أبيات وبيوت وأوتاد وفيه علل وزواحف وغيرها من مكونات الأبيات والبيوت.[3]

يرتبط تطور العنوان بتطور الكتاب، فالعنوان مثل الكائن الحي، يتطور باستمرار؛ فكما سادت سابقا بين الناس أسماء: العلجة وبركاهم وفطومة، ونعناعة وخدّوجة، وامحند والعياشي وقدور، والهامل وغيرها... برزت اليوم ــ بوضوح أكبر ــ أسماء: صباح وآمال وسهام وعفاف ووردة وياسمينة وفاتن وهيفاء وإيناس وبسّام ورفيق ورياض ونوفل وجمال وأكرم وغيرها...

الاهتمام بالعنوان وعلاقة ذلك بالقراءة:

في مجال الكتب كذلك، نلمس تحولا بيّنا؛ فبعد أن كانت عناوين الكتب،غالبا، تمتثل للعبارات المسجوعة، الرنانة كـــ: "السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني"، "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، "الواسطة في أحوال مالطة"، "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"... أما اليوم، فالعناوين تطورت لتتأرجح بين التلميح والتصريح؛ فهناك العناوين المباشرة من قبيل: دراسات في النقد الأدبي، ومناهج الدراسات النقدية، ومفهوم العقل في التراث العربي وغيرها... وهناك من جهة ثانية عناوين مثيرة مثل: " الزرافة المشتعلة " و " حصان نيتشة " و "الكتابة بالنار "،"عابر سرير" و" اللاز " و"اللعنـــة عليكم جميعـــا " و" الخطيئة والتكفيـــر" و "المرايـــا المحدبـــة "، وغيرها... لكن لماذا هذا الاهتمام بالعناوين؟ وما علاقة ذلك بالقراءة ؟

يسمح العنوان بوضع فرضيات للقراءة، إنه إشارة إغراء وغواية، فالنص يدعو قارئه عبر العنوان، وفعل القراءة صار يُلبَّى بدعوة من العنوان!!

لقد ألقت المنهجيات النقدية الحديثة بظلالها على فكر المبدعين والنقاد العرب المعاصرين على السواء، وأدرك الجميع أهمية العنوان في العملية الإبداعية قاطبة لكونه

(العنوان) عنصر الاستقطاب المركزي، ولكونه " يمثل دليلا لتمييز نص عن آخر، ويفتح أفق القارئ على كون أدبي معين، محفزا إياه على المضي للاطلاع عليه قصد إشباع توقعاته الجمالية."[4]

خاض النقاد العرب المعاصرون في الدراسات العنوانية فأنجزوا أعمالا حاولوا من خلالها المساهمة في التنظير لعلم العنونة، وهو علم نراه واعدا، على اعتبار أننا نعيش عصر العنونة، التي تفرض حضورها على المستوى الشخصي بما يحدد لكل منا هويته وانتماءه الجغرافي والوظيفي والتوجه الفكري. وهي قبل ذلك سمة لمختلف أشكال الأداء عند الدول والأنظمة والأحزاب. ولعل ما يثير فاعلية التأمل، أن يكون ظهور التوجهات الرومانسية وانشغالاتها بالعنوان متزامناً مع النزوع السياسي نحو إنجاز خصوصيات الهوية وإنشاء الأنظمة المستقلة وهي تحمل عنواناتها الفكرية والاجتماعية ، وتعلن عن هويتها الوطنية أو القومية المتميزة.[5]

شهدت تجربة العنوان تطورا غير مسبوق في الممارسة الإبداعية المعاصرة لحد الخروج به إلى خصوصية دلالية وجمالية مفعمة بالتفرد والغرابة عن سياق نصه، وتصنع له علاماته المميزة، وبلاغته المغايرة، مما يؤشر لتأسيس " ثقافة نصوصية متميزة تخص العناوين دون النصوص."[6]

جهود الدارسين العرب في التأسيس للعنونة المعاصرة:

من المفيد أن أشير إلى جهود الدارسين العرب في مجال العنونة؛ فقد نشر "محمد عويس " كتابا سنة 1988 وسمـــه بـــ : " العنـــوان فـــي الأدب العربي، النشأة والتطور"، ولعله حاز قصب السبق في هذا المجال؛ إذ بحث فيه نشأة العنوان وتطور العنونة منذ العصر الجاهلي إلى الثمانينيات من القرن الماضي، مستقصيا مفهوم العنوان ومستعرضا أهم الأشواط والمراحل التي قطعهـــا، وأهم الأشكال البنائية التـــي مـــر بهـــا، فضلا عن دراسته لمجموعة من العناوين لشعراء معاصرين. وقد اختار خمسة شعراء وعددا مماثلا من الشاعرات لتحقيق التوازن بين الجنسين. وما يعاب عليه، أن

الذين اختارهم كلهم من المشرق العربي. وبغض النظر عن هذا وذاك، فإن العمل ــ بحق ــ رائد، فيه تأصيل للعنونة في الفكر العربي وإبداعه عموما.

جهد آخر لا يقل أهمية قام به " جميل حمداوي " بنشره دراسة حداثية في " مجلة عالم الفكر " التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، وذلك سنة 1997، عنوان الدراسة " السيميوطيقا والعنونة، استعرض فيها أهم المدارس السيميائية في الغرب، وأشهر أعلامها، كاشفا النقاب عن علاقة " السيميوطيقا " ــ كما يحلو له أن يسميها ــ بالعنوان، ونظرة الدراسات المعاصرة إليه في ضوء هيمنة المناهج النقدية المعاصرة على مجمل الدراسات الأدبية والنقدية.

لقد اتكأ " جميل حمداوي، في دراسته، علـــى النظـــرة الغربية المعاصرة للعنوان، وخاصة نظرة " ليو هوك " و " جيرار جينيت " و " رولان بارت " و " شارل غريفل "، ودعا إلى قراءة العنوان قراءة جمالية جديدة، باعتباره " رسالة، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه في تواصل معرفي وجمالي، وهذه الرسالة مسنّنة بشفرة لغوية يفكّكها المستقبِل، ويؤوّلها بلغته الواصفة أو الماورا– لغوية، وهي (الرسالة) ذات وظيفة شاعرية أو جمالية ترسل عبر قناة وظيفتها الحفاظ على الاتصال."[7]

أما محمود الهميسي، فقد نشر سنة 1997 دراسة مستفيضة عن العنوان ومختلف إشكالاته في مجلة "الموقف الأدبي " التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب بدمشق، وكان عنوان الدراسة: " براعة الاستهلال في صناعة العنوان "، وهي دراسة تضاف إلى الجهود الرامية إلى استكناه خفايا العنوان وما ينطوي عليـــه من عوالـــم مستفزة، وأسرار غامضة، تدعو إلى تساوق الجهود للإمساك بتلابيبها.

ومـــن المساهمـــات الجـــادة فـــي التنظيـــر للعنونة في الفكر العربي المعاصر، كتاب: "العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي " لمحمد فكري الجزار، الذي أصدره سنة: 1998، وهو جهد يضاف إلى الجهود السابقة قصد تسليط الضوء على العنوان الذي عانى من التهميش ردحا من الزمن في أدبنا العربي عن قصد أو عن غير قصد.

وتناول المؤلف بالدراسة عناوين عدة أجناس أدبية، معتبرا ــ في سياق حديثه عن المنهج الواجب تطبيقه لدراسة العنوان ــ أن " تحليل عنـــوان عمـــل ما سيكون مختلفا، منهجيا وإجرائيا، عن تحليل عمله (...) لكون العنوان ليس زائدة لغوية للعمل ولا هو عنصر من عناصره انتزع من سياقه ليحيل إلى العمل كله."[8]

ويضاف إلى هذه الأعمال التي حاولت التأسيس لفقه العنونة في النقد العربي المعاصر جهود عدد من الدارسين، نذكر مـــن بينهـــم: رشيد يحياوي، و عبد الرزاق بلال، وعبـــد الإلـــه قيـــدي، و سعيـــد بن كَراد، و عبد الفتاح الحجمري، و محمد مفتاح، و محمد بنيس، و محمد الهادي المطوي، وحاتم الصكر، وعلي حداد، ومحمد صابر عبيد، ومعجب العدواني وغيرهم...وقد ساهموا في التأصيل لفقه العنونة والعمل كلٌّ حسب رؤيته. إلا أن القاسم المشترك الذي يجمع بين هؤلاء، هو أنهم اعتبروا " العنوان بؤرة للوعي الشعري، ومركزا للتفاعل والمواجهة مع الواقع المظلم؛ إذ يعتبر بمثابة المفتاح الذي يسمح بالولوج إلى مدائن النص."[9]

أما بســـام موســـى قطـــوس، فقد ألف سنة 2001 كتابا بعنوان " سيمياء العنوان "، ليضاف إلى الرصيد النقدي الذي يخص العنوان.

لقد تغيرت نظرة المبدعين والدارسين ــ على حد سواء ــ إلى العنوان، فبعد أن كان يُنظر إليه على أنه مجرد فاتحة نصية، أو مجرد اسم لتمييز نص أو كتاب عن آخر، صار ينظر إليه على " أنه مفتاح التجربة وكنزها المعبّأ بكل صنوف الوجدان المر."[10]

تربعت لفظة " العتبة Seuil " على عرش المصطلحات النقدية المعاصرة التي تطلق على العنوان، ذلك أن " أول عتبة يطؤها الباحث السيميولوجي هو استنطاق العنوان واستقراؤه، بصريا ولسنيا[11]، أفقيا وعموديا."[12]

العنوان العربي المعاصر والآداب الإنسانية المعاصرة:

العنوان في الإبداع العربي المعاصر " نص مختزل ومكثف ومختصر، إنه نظام دلالي رامز له بنيته الدلالية السطحية وبنيته الدلالية العميقة، مثل النص."[13]

إن العنوان في الإبداع العربي المعاصر لا يختلف عن العنوان في الآداب الإنسانية المعاصرة؛ يُصرّح ويفصح، ويلمّح ويغري، ويراوغ ويتمنّع، ويكسر أفق التوقع، ولنا في نماذج من هذه العناوين خير دليل:

مسيرة الجزائر (عبد القادر بن محمد)، انطباعات (محي الدين عميمور)، دلالة الألفاظ (إبراهيم أنيس)، خضراء تشرق من طهران (مصطفى محمد الغماري)، هموم مواطن يدعى عبد العال (عبد العالي رزاقي)، العصفورية وسقيفة الصفا (غازي القصيبي)، أطلس المعجزات (صالح خرفي)، الناس في بلادي (صلاح عبد الصبور)، كيف الأحوال (ربيعة جلطي)، زقاق المدق (نجيب محفوظ)، الدروب الوعرة (مولود فرعون)، البرزخ والسكين (عبد الله حمادي)، قصائد متفاوتة الخطورة (عبد الحميد شكيل)، المتغابي (عثمان لوصيف)، رحيق الذكريات (روحية القليني)، صلاة إلى الكلمة (جليلة رضا)، أوجاع صفصافة في مواسم الإعصار (يوسف وغليسي)، أحزان العشب (إدريس بوذيبة)، امرأة للرياح كلها (حكيم ميلود)... ولله في الكتّاب والشعراء شؤون في اختيار عناوينهم.

الهوامـــش:

[1] محمد صابر عبيد:إشكالية العنونة بين القصد وجمالية التلقي، مجلة الموقف الأدبي، العدد 374 حزيران-2002 ،ينظر الموقع:
http://www.awu.dam.org/mokifadaby/374/mokf374-022.htm

تاريخ الدخول إلى الموقع : 2005/01/24.

[2] عبد الفتاح الحجمري:عتبات النص(البنية والدلالة)، منشورات الرابطة، الدارالبيضاء، 1996، ص28.

[3] رشيد برهون: استراتيجية القراءة، القدس العربي ليوم :2004/08/12 إلى: 2004/08/19، ينظر الموقع:
www.alquds.co.uk/index.asp?fname=2004 تاريخ الدخول إلى الموقع: 2004/08/25.

[4] إبراهيم القهوايجي: شعرية القص و استراتيجية الكتابة،قراءة في:"الكلام بحضرة مولانا الإمام"،ينظر الموقع:
http://www.aushtaar.net/Entry4/ibrahim_kawaji03.htm تاريخ الدخول إلى الموقع:2004/08/26

[5] علي حداد: العين والعتبة مقاربة لشعرية العنونة عند البردوني، مجلة الموقف الأدبي، العدد 370 شباط 2002 ، ينظر الموقع:
http://www-awu.dam.org/mokifadaby/370/mokf370-005.htm تاريخ الدخول إلى الموقع 27/01/2005 .

[6] عبد الله محمدالغذامي: ثقافة الأسئلة، دار سعاد الصباح، الكويت 1994، ص51..

[7] جميل حمداوي:السيميوطيقا والعنونة، مجلة " عالم الفكر "، دورية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت، مجلد 25 ، العدد 03 ، يناير / مارس 1997 ، ص100.

[8] محمد فكري الجزار:العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص35.

[9] شراف شناف:هندسة العنوان في ديوان البرزخ والسكين،ضمن كتاب:سلطة النص في ديوان البرزخ والسكين للشاعرعبد الله حمادي، منشورات النادي الأدبي ، جامعة منتوري ، قسنطينة، الجزائر،ط1، 2001،ص267.

[10] عدنان حسين قاسم:الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي،الدار العربية للنشر والتوزيع،1421هـ ،2001م،ص328.

[11] النسبة في العربية تكون إما:إلحاقا بالمفرد ، فنقول : لسانيا ، أو المثنى ، فنقول: لسانانيا، أو الجمع فنقول:ألسنيا. ولعل الكاتب يقصد إلى نحت اصطلاح جديد؟

[12] جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، ص97.

[13] الطيب بودربالة: قراءة في كتاب"سيمياء العنوان" للدكتور بسام قطوس، ضمن محاضرات الملتقى الوطني الثاني السيمياء والنص الأدبي، 15ـ 16 أفريل2002،ص25.